الدادسي، عبد اللطيف، مجلة القدس للبحوث الأكاديمية-
نسخة العلوم الإنسانية والاجتماعية 1 (4):61-48 ,2025
DOI: https://doi.org/10.47874/AQUPP:48-61

من تأويل الذاكرة إلى نقد صورتي المثقف والزعيم: رواية "زمن الخيول البيضاء" نموذجا

عبد اللطيف الدادسي

الملخص

نحاول من خلال هذه الدراسة مقاربة رواية زمن الخيول البيضاء لإبراهيم نصر الله، وذلك عبر رهانات عدة، منها التأكد من ملاءمة المنهج السميائي الثقافي لقراءة سرديات الثقافة والذاكرة ضمن سياق التجربة الاجتماعية. ثم القيمة المعرفية والنقدية للتأويل الثقافي، زيادة على وظيفة الذاكرة في تأمين حاجات الحاضر والمستقبل والاستفادة من أخطاء الماضي. ولعل القارئ لهذه الدراسة سينتهي إلى المعرفة بأهمية الذاكرة في التمكين من معرفة الماضي، وأهمية التأويل بصفته أداة نقدية تكشف عيوب الذاكرة من جهة أولى، ثم تفضح عيوب التجربة الاجتماعية للأفراد والجماعات من جهة أخرى. وتجب الإشارة إلى أن تأويل الذاكرة لن يكون مؤهلا لنقد الذاكرة والتجربة الاجتماعية إذا لم يتم ربطه بالتمثيل السردي الذي يجعل الذاكرة ممثلة في حبكة فنية تعطيها معناها، إذ المعنى يكون في النص لا في خارجه. ثم في جانب آخر ينكشف أن الرواية قد نقدت التجربة الاجتماعية الخاصة بالمثقف والزعيم، تلك التجربة المحفوظة في ذاكرة الشعب الفلسطيني. فالعلة من وراء نقد الرواية لهذين الطرفين هو كونهما قادرين على تحريك الوضع الاجتماعي إيجابا أم سلبا حسب قناعاتهما القيّمية والأخلاقية. وهكذا فالرواية، وهي تسرد الذاكرة، تعطي ذاكرة مضادة تصون الحق في التذكر، وتقدم معرفةً بالماضي لتبرير فشل المقاومة الفلسطينية، واستخلاص دروس تجذي في عدم تكرار أخطاء الماضي

الكلمات المفتاحية: السميائيات الثقافية، الذاكرة، النقد، التجربة الاجتماعية، المثقف، الزعيم.

From the Interpretation of Memory to a Critique of the Representations of the Intellectual and the leader: Ibrahim Nasrallah's novel *The Time of White Horses* as a model

Abstract

Through this study, we attempt to approach the novel *The Time of the White Horses* by Ibrahim Nasrallah, through several bets, including ensuring the suitability of the semiotic-cultural approach to reading narratives of culture and memory within the context of social experience. Then the cognitive and critical value of cultural interpretation, in addition to the function of memory in securing the needs of the present and future and benefiting from the mistakes of the past. Perhaps the reader of this study will come to know the importance of memory in enabling knowledge of the past, and the importance of interpretation as a critical tool that reveals the defects of memory on the one hand, and then exposes the defects of the social experience of individuals and groups on the other hand. It must be noted that the interpretation of memory will not be qualified to criticize memory and social experience if it is not linked to the narrative representation that makes memory represented in an artistic plot that gives it its meaning, since the meaning is in the text and not outside it. Then, on the other hand, it is revealed that the novel criticized the social experience of the intellectual and leader, an experience preserved in the memory of the Palestinian people. The reason behind the novel's criticism of these two parties is that they are able to move the social situation positively or negatively according to their value and moral convictions. Thus, the novel, as it narrates memory, gives a counter-memory that preserves the right to remember, provides knowledge of the past to justify the failure of the Palestinian resistance, and draws lessons that help in not repeating the mistakes of the past.

Keywords: Sémiotics of culture, memory, criticism, social experience, intellectual, leader.

الدكتور عبد اللطيف الدادسي، جامعة مولاي إسماعيل، المغرب.
حقوق النشر 2025،جميع البيانات الواردة في هذا المقال محمية ويجب أخذ إذن استخدام عن طريق جامعة القدس (www.alquds.edu).

مقدمة

يعتبر «تأويل الذاكرة» مدخلا نقديا في السميائيات الثقافية التي صاغ مقترحاتها النظرية وحدودها البحثية كل من يوري لوتمان وأمبرطو إيكو ورولان بوسنر وآخرين. حيث اعتبر يوري لوتمان وبوريس أوزبنسكي الذاكرة خاصيةً من خاصيات الثقافة ووظيفة لها (لوتمان وأوزبنسكي، ١٩٨٦، ص. ٢٩٨)، فبواسطة الذاكرة نتعرف على الثقافة وما يميزها عن غيرها. زيادة على ذلك، فالذاكرة من المواضيع التي ضمتها السميائيات الثقافية إلى حدودها البحثية (Caccamo, 2017, p. 1). وما كان للذاكرة أن ينظر إليها على أنها علامة قابلة للتأويل لولا الحاجة الملحة إلى ذلك. فالذاكرة بما هي وسيلة لحفظ التجربة الاجتماعية، ثم نص يخبر عن الماضي، كل هذا جعلها مكونا من مكونات الثقافة. كما أن أي محاولة لممارسة التذكر إلا وتتعرض لآفة النسيان إلا نادرا، خاصة وأن المباعدة الزمنية تجعل الماضي الذي كان معروفا أقرب لأن يكون مجهولا وكأنه لم يكن. لهذا فالذاكرة بهذه الحال تكون في حاجة إلى النقد حتى تصبح قادرة على أداء وظيفتها الإخبارية والأرشيفية، والتأويل هو المدخل الإدراكي الذي يتيح نقد الذاكرة ويكشف عيوبها وينجيها من تلك العيوب، خاصة حينما يكون التأويل هو المدخل الأول لاشتغال التمثيل السردي للذاكرة في الرواية.

لقد كان التاريخ هو الإنتاج الفكري الوحيد الذي انفرد باستعادة الماضي، لكن مع تقدم الزمن وتغير الوضع البشري نهضت إنتاجات فكرية نازعت التاريخ في استعادة الماضي، ولعل فن الرواية أحد أبرز تلك التجارب الفكرية الإبداعية التي سعت إلى كتابة الذاكرة على نحو متخيل غير آبهة لمقولة الصدق والحقيقة، يكفي أن تستثمر الماضي في تلبية حاجات الحاضر والمستقبل، وهذه إحدى فوائد الماضي. ففي الرواية لا يحضر الماضي فقط، بل يحضر وهو الذي يُقيِّم الحاضر وينبئ بالمستقبل. ولعل هذا الاندماج الزمني في الرواية يؤكد أهمية الرواية في المعرفة بالحياة في وقت أصبحت المعرفة نادرة، والجهل هو المسيطر على الذهنيات الإنسانية التي لا تعرف أي شيء عن مسارها التاريخي وهدفها الوجودي. وهكذا فالرواية، وهي تمثل الذاكرة، تؤولها وتعطيها المعنى الثقافي الذي يريده المجتمع، ما يجعل المجتمع فاعلا متدخلا في تحديد هوية الذاكرة المرغوبة، رغم أن هذه الذاكرة ستظل تعاني من سيطرة الذاكرة المفروضة، وبين هاتين الذاكرتين هناك نضال مستمر ضد النسيان.

إشكالية الدراسة ومنهجية مقاربتها

إن رواية زمن الخيول البيضاء للروائي الفلسطيني إبراهيم نصر الله من أبرز الروايات التي تستثمر الماضي وتناضل من أجل بناء ذاكرة فلسطينية، لذلك تأتي هذه الدراسة متخذة من الرواية موضوعا للتأويل السميائي الثقافي مع الانضباط إلى سردية الذاكرة. فهذه الرواية تحكي عن الماضي الفلسطيني الأليم، وهو الماضي الذي لم ينته بعد، حتى أصبحنا لا نفرق بين الماضي والحاضر ولا نتوقع إلا رحمة الله، لدرجة أصبحت القضية الفلسطينية حلما مرعبا لم تستيقظ منه فلسطين والأمة الإسلامية.

ولعل النضال ضد الوجود المأساوي والكارثي للمحتل الصهيوني بفلسطين يطرح أسئلة كثيرة تتعلق بالفشل والنجاح في مشروع المقاومة. ولمقاربة هذه الأسئلة انطلقنا من مدخل تأويلي يضع حدودا لمقاربتنا لهذه الرواية، يتعلق الأمر بسردية الخيانة، حيث انطلقنا من أسئلة راهنية ارتكز عليها تأويل الذاكرة الفلسطينية، وهي أسئلة يمكن بواسطتها حيازة معرفة بأسباب فشل مقاومة الفلسطينيين للوجود السلبي المتعلق بالعثمانيين والبريطانيين والإسرائيليين. فتأويلنا للأحداث المشكِّلة لسردية الخيانة ارتبط بالبحث في تجليات ممارسة الخيانة لدى نموذجين من طبقات المجتمع؛ طبقة الزعماء أو القادة، وطبقة المثقفين، إننا هنا سنتقيد بالبحث في أكثر الموَاطِن ارتباطا بمقولة الواجب، كون مقولة الواجب ترتبط كثيرا بمقولة الخيانة.

إن انتقاءنا لهذين النموذجين (المثقف والزعيم) يرجع إلى وعينا بأهميتهما في تقوية المقاومة الفلسطينية، ونجد غرامشي يؤكد تلك الأهمية بقوله: "الوعي الذاتي النقدي، بمعنى تاريخيا وسياسيا خلق نخبة من المثقفين، فالكتلة البشرية لا تتميز ولا تصير مستقلة من تلقاء ذاتها، من دون أن تنظم نفسها بالمعنى الواسع، ولا تنظيم بدون مثقفين وبدون منظمين وبدون قادة" (عمار بلحسن، ١٩٩١، ص. ٢٦). ولهذا فالمقاومة تكون في حاجة، من جهة أولى، إلى طبقة الزعماء والقادة لكون هذه الطبقة تملك القوة أو لنقل إنها قد تكون لها الكفاية في القيادة والتدبير والشجاعة والقرب من مراكز صناعة القرار، ومن جهة ثانية، فالمقاومة في حاجة إلى طبقة المثقفين، لما لهذه الطبقة من أهلية في تصحيح المسارات الخاطئة التي تتجه فيها المقاومة. إن تجربتنا السميائية للأحداث المشكلة لسردية الخيانة تنطلق من سؤال مفاده، لماذا لم يُخلص المثقف والزعيم لواجبهما ومسؤوليتهما الوطنيين؟

الدراسات السابقة

يتأطر هذا البحث بمجموعة من البحوث التي تقدمته في مقاربتها لرواية زمن الخيول البيضاء، أولها بحث لنيل الماجيستير من طرف الباحثة بلقيس سويطي بعنوان "رواية زمن الخيول البيضاء لإبراهيم نصر الله (دراسة سيميائيّة)" (سويطي، ٢٠٢١)، وقد تمثل سبقها النقدي في الانضباط إلى السميائيات السردية التي توزعت دعاماتها بين ما اقترحه غريماس وفيليب هامون. ودراسة أخرى للباحث أبي شهاب رامي نزيه بعنوان "النكبة في رواية زمن الخيول البيضاء: المتخيل والوعي التاريخي" وهي دراسة تفكر في رواية زمن

الخيول البيضاء من منظور متعدد المداخل ينفتح على الدراسات الثقافية والتخيل التاريخي كما نظر له بول ريكور والرواية التاريخية كما يتحدث عنها جورج لوكاتش، حيث قصد الباحث إلى الجمع بين تأمل الأحداث التاريخية وأثرها على الإنسان متجاوزا النقد الذي يروم التثبت من حقيقة المرويات الذاكراتية والتاريخية. ومن موقع آخر نجد زينب الياسي قدمت بحثا بعنوان «التاريخ والرواية الجديدة: رواية «زمن الخيول البيضاء لإبراهيم نصر الله نموذجا» حيث راهنت في مقاربتها على النظر في اشتغال التخيل التاريخي في الرواية ما يجعل إشكاليتها محصورة في دراسة المعالجة الفنية والروائية للتاريخ والذاكرة (الياسيني, ٢٠٢١). لكن الذي تختلف به دراستنا هذه عما تقدمها من أبحاث هو التوسل بسميائيات الثقافة والذاكرة عند يوري لوتمان وأمبرطو إيكو وكليفورد غيرتز حيث كان انشغالنا مقيدا بالجمع بين نقد الذاكرة في محتواها من طرف الرواية ونقد التجربة الاجتماعية التي تحكيها الرواية إيمانا بالوظيفة النقدية التي تضطلع بها السميائيات سعيا منا إلى تحويل العالم من حالة الفوضى إلى حالة النظام.

أولا: المثقف بين الاتهام والبراءة - شخصية محمود بن الحاج خالد نموذجا

لقد سعت الرواية إلى تقديم سرد نقدي للتجربة الاجتماعية المرتبطة بالمثقف، وقد انطلق نقدها من سؤال مفاده، ما موقع المثقف مما يجري في الهادية والقرى الفلسطينية من الصراع مع الآخر العثماني والبريطاني والإسرائيلي؟ فالرواية تؤكد خلال سرد أحداثها على أهمية الثقافة في المجتمع، وذلك لكونها تنشئ مناعة لدى الأفراد ضد أي تهديد محتمل، ناهيك عن تضمينها ما يدل على خوف العثمانيين والبريطانيين من تعليم الفلسطينيين. لكن مع امتداد الأحداث في الرواية وجدنا أن محمود بن الحاج خالد أصبح مالكا للثقافة ويشتغل في إحدى صحف يافا (الرواية، ص ص. ٤٦٢-٤٦٣), وهو أحد الأفراد الذين ينتمون إلى الأسر القريبة من الصراع مع العدو. ونعبر عن السؤال الذي يرتبط بتأويلنا لموقف المثقف مما يجري بالقول: هل الثقافة التي يملكها محمود تجعله قادرا على أداء وظيفة المثقف؟

يدفعنا السؤال إلى العمل على اختبار هذه الشخصية والتأكد من مدى توفرها على خصوصيات المثقف. فما المقاييس الممكنة لاختبارها؟ إن هذا الاختبار سيقودنا إما إلى تبرئة محمود من تهمة خيانة الواجب، وإما إلى تأكيد هذه التهمة. ولاستخلاص مقاييس هذا الاختبار يمكن الوقوف عند المفهوم الذي صاغه إدوارد شيلز للمثقف: المثقف هو «الشخص المتعلم الذي يمتلك طموحا سياسيا للوصول إلى مراكز القرار السياسي، أو من خلال دوره المحوري الحاسم في توجيه المجتمع عن طريق التأثير على القرارات السياسية الهامة التي تؤثر على المجتمع ككل. ميزة هذا المثقف قدرته العالية على استخدام رموز ودلالات ومفاهيم لغوية عالية متصلة مباشرة بالإنسان والكون والفرد والمجتمع» (إدوارد، ٢٠١١، ص. ٣٦).

إن الذاكرة في الرواية تؤول شخصية محمود، وذلك على نحو متفرق مرتبط بسرد مراحل نشوء الشخصية وتجاربها، ويمكننا أن نخضع هذه الشخصية لمقاييس الاختبار التي يتضمنها تصور إدوارد شيلز للمثقف، فمحاولتنا هذه تقتضي منا تأويل هذه الشخصية وفق علاقات عدة، أولا: علاقتها بالواقع السياسي من حيث البعد أو القرب، ثانيا: علاقتها بمفهوم المثقف، ثالثا: علاقتها بكفاية المثقف في توضيح مسار المقاومة الفلسطينية لما يهدد حياة الفلسطينيين في أرضهم.

ويمكن أن نعرج على هذه العلاقات بقولنا إن محمود متعلم، ويعيش بعيدا عن أسرته المقاومة وعن الواقع السياسي الفلسطيني، وفي الآن نفسه كان قريبا منه كأي شخص فلسطيني؛ فهو لم يكن مثل كريم ابن صبري النجار الذي قال عنه السارد: لكن الشيء الذي لم يتوقعه أحد، هو أن هذه القصص (يقصد قصص خالد مع الجند الترك) ستصبح حلما من أحلام الصغير (يقصد شخصية كريم) (الرواية، ص. ١٤٨). الشيء الذي يجعله بعيدا عن التأثر بملاحم والده وبطولاته، مما ينفي أن يكون له طموح سياسي، خاصة وهو الذي يتصف بالانعزالية، وذلك جلي

في رده على ليلى التي حرضته على الكتابة والشهرة، قال لها: «لا أريد أن يعرفني أحد. وكلما كنت مجهولا أحس براحة أكبر» (الرواية، ص. ٤٢٢). ومنه، كيف لمن هو مغترب عن العالم السياسي ومنعزل عنه أن يكون قادرا على توجيه مجتمعه والتأثير في القرارات السياسية؟ لكن هل غياب الطموح السياسي يُبَرّئُ محمود من تهمة خيانة واجبه؟ أليس التعلم وامتهان الصحافة يجعل من الإنسان مثقفا؟ لقد صغنا هذا التساؤل الأخير انطلاقا من إشارة إدوارد سعيد بخصوص مفهوم المثقف يقول: «يُعتبَر كل من يعمل اليوم في أي مجال يتصل بإنتاج المعرفة أو نشرها مثقفا بالمعنى الذي حدده غرامشي» (إدوارد، ٢٠٠٦، ص. ٤٠).

وأما عن فكرة البعد والقرب من الواقع السياسي يمكن التساؤل: هل البعد عن الواقع السياسي سبب لعدم امتلاك محمود معرفة بهذا الواقع؟ إن الإجابة عن هذا السؤال الأخير يمكن استخلاصها في قول السارد: «كل قصة كتبتها ليلى ابتكر لها محمود نهاية» (الرواية، ص. ٤٢١). وفقا لهذه الحجة السردية يتبين أن محمود قد يمتلك القدرة على إنتاج المعرفة بنهاية الأمور، لكنه ينفي امتلاكه للقدرة على قراءة الواقع السياسي، وذلك بتضمين حجج في رده على ليلى: «تصوري أن يقترب أحدهم ويسألني: أستاذ محمود ما رأيك فيما يدور؟!! وإلى أين تسير الأحداث في فلسطين باعتقادك؟ سأجنُّ حينها. من يستطيع أن يحل معادلة أطرافها كل هؤلاء: الفلاحون الفلسطينيون، زعامتهم في المدن وزعامتهم في الريف، الفقر الذي هناك في القرى والغنى الذي هنا في المدن، التفوق الصناعي الأوربي الذي حمله اليهود معهم والتخلف في كل شيء الذي ترك الأتراك لأهل هذه البلاد. من يستطيع أن يحل معادلة فوضى عشرات الأحزاب

هنا وارتباك أهدافها وتضاربها وصراعاتها التي لا تنتهي، ودقة تنظيم المنظمات اليهودية التي تصب في هدف واحد ووحيد: احتلال فلسطين وطرد أهلها منها؟ من يستطيع أن يحل معادلة أطرافها نحن والعرب والإنجليز واليهود؟!" (الرواية، ص ص.٤٢٢–٤٢٣).

تحاول الرواية، وهي تحيي ذاكرة الواقع السياسي، قراءة علاقة المثقف بما يجري حوله، وذلك بالدفع بهذا المثقف نحو امتحان صعب، مما يجعله معرضا للاتهام أو البراءة أو هما معا، وتمكينه من الدفاع عن نفسه، لكننا نرى شخصية المثقف محمود تنتقي من الواقع ما ينفعها في إبطال تهمة خيانتها الواجب، وهكذا يكون خطابها مؤدلجا بقوة حيث تفتقد لأثر الرغبة في قراءة الواقع السياسي. وعليه فإن "الإفراط في الأيديولوجيا يمكن أن يحولها إلى وظيفة تبريرية سلبية للدفاع عن الوضع القائم بدلا من مواجهته ونقده" (بريمي، ٢٠١٤، ص. ١٠٣). ولكن نجد الرواية تنتقد محمود من خلال كشف بعض زلاته التي تتمثل في قدرته على التفكير والإبداع والقرب من وسائل الإعلام، كما أنه لم يناقش القضية الفلسطينية مع أبيه أو أي أحد من المقاومين القريبين من الواقع السياسي. وعليه فوقوف محمود وقوف المتفرج أمام ما يجري في الحياة الاجتماعية المشتركة بين الذات والآخر يجعلنا نستحضر ما قاله سعيد جبار: "الذاكرة إذن تحاكمنا وتسجل ضدنا هذا التاريخ الطويل المليء بالنتوءات والشروخات، وتحملنا جزءا من المسؤولية في الانهيار والإحباط بوقوفنا هذا الموقف السلبي (موقف المتفرج) من عجلة الزمن وهي تدور في اعتباطية وفوضى" (جبار، ٢٠٠٤، ص. ٨٧).

إن الحجج التي دعم محمود بها نفيه لقدرته على قراءة الواقع السياسي ومعرفة مسار القضية الفلسطينية قد تبدو منطقية كونه أشار إلى مكامن المشكل في القضية السياسية، وأن الوضع يصعب تخطيه وتجاوزه. لكن إذا كان فقد المثقف القدرة على قراءة الواقع السياسي يبعد عنه تهمة عدم المحاولة في القراءة فهل فقدان القضية الفلسطينية للحلول يجعل المثقف يتخلى عن وظيفته؟ قد يكون التبرير الذي قدمته شخصية محمود لا أساس له، فالواضح بالنسبة إلينا أن محمود شخصية مسكونة بعقدة التخلي، ويمكن تأمل هذه العقدة في الحوار الآتي الذي وقع بين ليلى ومحمود:

- أين تسير الأمور في فلسطين باعتقادك؟ ليلى تسأل.
- ومن قال لك أن باستطاعتي الإجابة عن سؤال كهذا؟!
- ما دمت سألته فمعنى هذا أنك تفكر فيه.
- كنت سأفكر فيه لو كنت كاتبا، ولكني لست كاتبا ولذلك لم أفكر فيه (الرواية، ص. ٤٢٣).

يتجلى من خلال سياق الأحداث أن الرواية تصور لنا علاقات الأفراد بقضاياهم الفردية والجماعية، وتفتح، عبر هذا التصوير، أفقا لتحديد نوع المثقف الذي كان في زمن الماضي والذي كان منتظرا منه أن يقلق سلطتي الاستعمار البريطاني والاحتلال الإسرائيلي، وهذا النوع هو المتجلي في شخصية محمود الحاج خالد، إنه المثقف المزيف، فإدراكنا لحقيقة نوع المثقف الذي يصنف ضمنه محمود كان قائما على فكرة مستخلصة من تصور أنطونيو غرامشي لتحليل حقيقة المثقف وهي توحد النظرية بالممارسة، فهذه الفكرة تعكس تساؤل غرامشي عن كيفية تحقيق الانتقال من النظرية إلى التاريخ. وما من مناضل أصيل، يسعى إلى عمل ثوري فعلي، إلا ويواجه هذه المسألة – مسألة تحقيق اللحمة بين التاريخ والفلسفة. فهذه المسألة تتبدى على عدة أصعدة أهمها الصعيد الثقافي؛ إذ يمكن تقييم "المثقفين" اعتمادا على مقدرتهم على – أو عجزهم عن – أن يرتبطوا بالجماهير الصاعدة. فإذا تمكنوا من ذلك، كانوا مثقفين "عضويين"؛ وإلا فهم مثقفون اصطناعيون، ومزيفون (غرامشي، ٢٠١٨، ص ص. ٦–٧).

ونجد في محفل سردي آخر أن الرواية تصور محمود في صورة المثقف المزيف الفاقد لملكة النقد السياسي، فهو مثقف كونه يمتلك الإمكانات المادية، لكنه ليس مثقفا عضويا، فهو مثقف مصطنع

يقع في الكثير من الأخطاء والتي منها؛ كتابته مقالا عن حدث اعتقال سليم بك الهاشمي بأمر من رئيس التحرير في الصحيفة التي يشتغل بها (الرواية، ص. ٤٥٨). فالخطأ يتجلى في كتابته المقال دون أن يعي أن سليم بك الهاشمي لا يستحق الكتابة عنه، لأنه ليس زعيما حقيقيا بل هو أحد المرابين والعملاء لدى المستعمِر.

إن كتابة محمود مقالا عن سليم بك الهاشمي، ولو أن هذا المقال تضمن حديثا عن أبيه، أمر يكشف أن محمود يجهل الواقع السياسي الفلسطيني ولا يعرف منه إلا ما هو متداول عند العامة وليس عند القريبين من أعضاء المقاومة. ومنه نخلص إلى أن الرواية تنتقد المثقف المصطنع أو المتوسل به؛ ذلك المثقف الذي تستعين به القيادات لتدعيم سياستها ودعايتها (إدوارد، ٢٠٠٦، ص. ٣٧)، وتنميق صورتها على مستوى علاقتها بالوضع السياسي المتأزم.

فاستجابة محمود لكتابة المقال الصحفي عن سليم بك الهاشمي يعكس الاستلاب للسُّلطة العميلة والخائنة، مما يؤكد حقيقة أنه مثقف مزيف كونه من السهل استقطابه من طرف قيادة الهاشمي. وكما أن الكتابة في وضعية الخضوع للسُّلطة ليست كتابة بالمعنى الحقيقي، فحينما تسعى الكتابة إلى تلبية حاجات السلطة فإنها تتحرر من جوهرها، إنها كتابة تحيلنا إلى ما يسمى بالكِذَابة؛ "إن الكِذَابة أياً كانت لا تقدم إلا المزيد من الديماغوجيا والتضليل والتجهيل والتزوير. أما الكتابة فهي النقيض. الكتابة هي التي تخاطب حاجاتنا تقدمنا ونهوضنا من عثورنا" (سليمان، ١٩٩٦، ص. ٦٤).

وهناك معنى آخر لحدث الاستجابة لكتابة المقال، نعبر عنه بالقول إن محاولة محمود كتابة مقال ناري عن الهاشمي وعن ضحايا الاستعمار أشعره بأن كتابة هذا المقال ستكون فرصة لدرء اتهامات الناس له بخصوص تخليه عن مهمة قراءة الواقع السياسي. ولا تزال الرواية تنتقد هذا المثقف، سواء بوعي أو بدون وعي، من خلال تضمين حديث الأنيسة في أحد المحافل السردية حيث ترد على إيليا الذي اقترح الاستنجاد بسليم بك الهاشمي لاعتقاده أنه مناضل كبير، تقول: "كل الذين دافعوا عن الوطن ماتوا إما على المشانق أو برصاص اليهود والإنجليز، أما هؤلاء الزعماء فلا يموتون، سبحان الله إلا موتة ربّهم!! ما لكم يا رجال، ما الذي حصل لكم هل عميتم؟" (الرواية،ص. ٣٩٧).

وعن علاقة هذا المقطع السردي الأخير يمكننا التساؤل: كيف لامرأة تهتم بشؤون البيت أن تعرف حقيقة أحد القادات الفلسطينيين ولم يعرفها محمود الذي يعتبر مالكا (مبدعا) لنهايات القصص؟ لكن أليست معرفة الأنيسة بحقيقة الزعماء هي نتيجة القرب من المقاومين؟

وفي الختام، يمكن القول إن محاولة الرواية إحياء ذاكرة العلاقة بين المثقف ومحيطه الفلسطيني ترتبط بهاجسها في تأكيد أهمية المثقف مما يجعلها تصدر فكرة مفادها أن المقاومة لا ترتبط بالمقومات المادية فحسب، بل ترتبط بالمقومات الفكرية التي تجعل المقاومة بمنأى عن الأخطاء.

ثانيا: الزعيم الزائف أو ما وراء الزعيم - شخصية سليم بك الهاشمي نموذجا

تمهيد

تقول أندريو ميسون: "نحن في حاجة إلى وجود إحساس بالانتماء إلى الدولة من أجل دعم السياسة التي تهدف إلى تحقيق الصالح العام، غير أن هوية قومية مشتركة ليست ضرورية في الغالب، فإذا كان هناك إحساس واسع الانتشار بالانتماء، على هذا النحو، فسيشعر المواطنون بأنهم جزء من الدولة التي يعدون جزءا من أفرادها، وقد ينتج عن ذلك أن يتولد داخلهم إحساس بأن لهم مصيرا مشتركا مع غيرهم ممن يعدون جزءا من هذه الدولة" (بريان، ٢٠١١، ص. ١٣٨).

يسعف القول أعلاه في أن نشير إلى أن رواية "زمن الخيول البيضاء" وهي تسرد خيانة الزعيم تروم نقد مشروع الزعيم الذي تمثل في إفقادِه أهل الهادية إحساسَهم بالانتماء إلى الدولة، وذلك نتيجة تعاونه مع المستعمِر، الأمر الذي يجعل أهل الهادية يستنتجون، في نهاية الأمر، أن الدولة التي يَعُدُّون أنفسهم منتمين إليها هي كائن عقيم فقد وظيفته إثر انتشار الخيانة في جسد الزعماء والقادة.

وانطلاقا من الاستهلال الأخير يمكن القول إن تأويل ذاكرة الزعيم الزائف في رواية "زمن الخيول البيضاء" يقتضي تفعيل مجموعة من الحدود السميائية والتي من شأنها مراقبة التجربة الاجتماعية ثقافيا، (لوتمان، ٢٠١١، ص ص. ٥٥-٥٦) وذلك قصد تأويلها وفق نسق سميائي يرتبط بالحاجات أو المطالب الاجتماعية التي تروم هذه الرواية تلبيتها باعتبار أن "وظيفة النص هي وظيفة اجتماعية؛ إنها قدرته على تلبية مطالب معينة في المجتمع الذي نشأ فيه النص، وبالتالي فإن الوظيفة هي العلاقة بين النسق وتحققه، وبين المرسل والمرسل إليه في النص" (Lotman and Piatigorsky ,1978, p. 233).

وإذا افترضنا أن هذه الرواية قد جعلت ذاكرة الزعيم الزائف مرتبطة أساسا بالمعجم الأخلاقي فإنه لا يمكننا أن ننفي إمكانية ارتباط هذه الذاكرة بالمعجم السياسي والاقتصادي والاجتماعي... فكل هذه الحقول المعجمية تتعاضد لتيسر فهم الواقع المسرود. إن المعرفة بمن هو الزعيم الزائف عبر التذكر تشكل حاجة اجتماعية يكون تحقيقها أداءً لواجب الذاكرة. ففي سبيل المعرفة بمن هو الزعيم الزائف تتحقق معرفة موازية، يتعلق الأمر بمعرفة موازية، يتعلق الأمر بمعرفة طبقة المحكومين وموقفهم مما يؤثر في تجربتهم الاجتماعية.

إن إصدار حكم أخلاقي على ما يقوم به الزعيم يجلي البحث في ما تقوم به هذه الرواية من نقد للذاكرة من ناحية ما يحفظه المجتمع عن ماضيه المشترك، فنقد الذاكرة يشكل تجربة إعادة كتابة لها، وهذا ما قد قامت به هذه الرواية؛ إذ حررت الذاكرة من مراجعها المتعددة لأجل أن "تتفاوض" (إيكو، ٢٠١٢، ص. ١١١) معها ترجميا، وتثبتها ضمن بنيتها السردية، فالغاية من نقد الذاكرة تحرير المجتمع من الوهم والزيف اللذين يخترقان الذاكرة المشتركة للأفراد مثل ما وقع لشخصية إليا ورفاقه، فالذاكرة حينما تعاد كتابتها تتاح آفاق المعرفة بالماضي، حيث إن الرواية مثلت الذاكرة وهي محاصرة بالنسيان، ثم مثلتها وهي تنتصر عليه فيما بعد. وعليه، فالمعرفة بمن هو الزعيم الزائف، باعتبارها حكما أخلاقيا حول هذه الشخصية، تكون نتاج نقد سميائي للتجربة الاجتماعية والتي تكون لها غايات متعددة ترتبط بهذه الرواية.

إن تأويلنا لرواية "زمن الخيول البيضاء" وفق الفرضية التالية: "الزعيم الزائف أو ما وراء الزعيم: شخصية سليم بك الهاشمي نموذجا" يطمح إلى جعل سردية الخيانة نسقا سميائيا يضبط مساراته وحدوده، فقد كانت المسارات والحدود مرتبطة بالبحث في طبقتين اجتماعيتين، طبقة أولى وهي الزعيم (سليم بك الهاشمي)، وطبقة ثانية هي طبقة المحكومين (أفراد المقاومة الفلسطينية). فالرواية وهي تبني ذاكرة الزعيم تحاول قراءتها في ضوء الوجود مع الآخر (الزعيم وأفراد المقاومة)، فتأويل عنصر وحده بدون علاقة مع عنصر آخر هو تأويل غير منتج، وذلك لأن التأويل في حقيقته يقوم على وجود علامات مختلفة، وليس وجود علامات متشابهة، وهذا أصل التأويل كما يذهب يوري لوتمان في حديثه عن الحوار ودوره في توليد المعنى (Lotman,1990, p.143).

إن الشخصيات السردية لا يمكن تأويلها إلا بوجودها على نحو مختلف سميائيا مع شخصيات أخرى، لهذا سيكون من الضروري وضع الذات مع الآخر في فضاء خارجي حيث يمتد كلٌّ من الذات والآخر نحو فضاء جديد، ليس هو فضاء المقاومة ولا هو فضاء السلطة، إنه الفضاء الذي يجمعهما، فضاء الفعل، إنه ""الفضاء الثالث" كما يسميها هومي بابا" (Sedda ,2012, p. 684). وعليه فالذات الفلسطينية ستشغل الهامش باعتبارها كيانا مستضعَفا، بينما سيشغل الآخر (العملاء) موقع المركز باعتبار هذا الآخر كيانا مستضعِفا وقاهِرا من هو خاضع لقيادته.

١- العملاء بين مقاومة الفوضى وتحقيق النظام

يقول يوري لوتمان: "إن العالم الخارجي الذي تنظر إليه الثقافة على أنه فوضوي، هو في الواقع منظم أيضا. يتم تنظيمه وفقا لقواعد بعض اللغات غير المعروفة بالنسبة لهذه الثقافة" (Lotman,2009, p.135). يمكّننا هذا القول من فهم أن مقولتي الفوضى والنظام ليستا شيئين ثابتين، وإنما هما في حقيقة الأمر معنيان أو فكرتان، لهذا فلوتمان حينما يتحدث عن الفوضى أو النظام فيقصد به تلك الفكرة التي يكونها مركز الكون السميائي عن هامشه أو العكس، فما يعتبر فوضى من منظور المركز، هو في حقيقته نظام من منظور الهامش. وما يعتبر نظاما من منظور المركز هو في حقيقته فوضى من منظور الهامش. إذ إن الذي يحدد مفهوم الفوضى أو النظام هو الكون السميائي الذي يخضع له المركز وكذا الهامش، فلكل من المركز والهامش كونه السميائي الذي ينظم العملية التأويلية. وقبل أن نتم مقاربتنا، فتجب الإشارة إلى أن مفهوم الكون السميائي (Semiosphere) الذي اقترحه يوري لوتمان، له ترجمتان هما: سيمياء الكون (ترجمة عبد المجيد نوسي) والكون السميائي (ترجمة عبد الله بريمي). وفي تعريف مفهوم الكون السميائي أو سيمياء الكون يقول يوري لوتمان: "يمكننا أن نتكلم عن سيمياء الكون، التي نحددها بأنها فضاء سيميوطيقي ضروري لوجود ولاشتغال اللغات المختلفة، وليس بمثابة جماع للغات الموجودة؛ بمعنى واحد سيمياء الكون لها وجود سابق على هذه اللغات وتوجد في حالة تفاعل دائم معها" (لوتمان، ٢٠١١، ص. ١٥). فالكون السميائي فضاء سميائي يُقام فيه التأويل، ناهيك عن أنه يتكون من منطقة المركز، تلك التي تضم النصوص الثقافية المعترف بها في الثقافة، وبهذه النصوص وفي ضوء قواعدها يتم التأويل. وفي المقابل هناك منطقة الهامش، والتي تضم النصوص المرفوضة أو المنتمية إلى الثقافات الأخرى. انظر: (لوتمان، ٢٠١١، ص. ٢٦). وبدون الكون السميائي لا شيء يُفهم أو يكون واضح المعنى، ثم إن الحياة والعلاقات الإنسانية لن تكون قريبة من الأمن والانضباط الاجتماعي وتدبير الأمور والحاجيات إلا إذا توفر للإنسان الكون السميائي الذي توفره له ثقافته. فالطفل في البداية يكبر وتكبر وتزيد معرفته بثقافته، بالجيد والسيء فيها، وبالتالي يجد نفسه مضطرا لينضبط وفقا لهذا الكون السميائي حتى يعيش داخل المجتمع.

وعن علاقة ذلك بتحليل الرواية، فالفضاء الفلسطيني يحتوي طبقتين هما: طبقة المقاومة، وطبقة العملاء والمستعمرين. ولهذا فاختلاف مصالحهما مرتبط باختلاف كونهما السميائي الذي ينظم تصرفات كل طبقة. إن فكرة مقاومة الفوضى وتحقيق النظام التي انطلقنا منها في هذا المحور من المبحث تشكل مطلبا اجتماعيا لدى كل طبقة اجتماعية، فإذا أخذنا مثلا طبقة العملاء سنجد مقاومتها للفوضى وتحقيقها للنظام يقوم على تأويل تجربتها الاجتماعية وفقا لمركز كونها السميائي، والعكس صحيح مع طبقة أفراد المقاومة.

يستمد المسار التأويلي التالي "العملاء بين مقاومة الفوضى وتحقيق النظام" معقوليته من فرضية مفادها أن مقاومة الفوضى وتحقيق النظام من طرف طبقة العملاء غاية تتأتى من تأويل هذه الطبقة لتجربتها الاجتماعية اعتبارا أن التأويل نقد لها حسب أمبرطو إيكو (بريمي، ٢٠١٨، ٢٨٢). فبناء ذاكرة الزعيم في رواية "زمن الخيول البيضاء" قام على البحث في الكيفية التي قاوم من خلالها العملاءُ الفوضَى التي تحاصرهم وحققوا النظام في المقابل.

إن أول تأويل مفترض للزعيم (القائد) هو أنه ركيزة سياسية، إنه شخص يُوجِدُ ذاته وينتجها إما بمنطق القوة المادية أو بمنطق حاجات وظروف مختلفة، كأن يُوجِدَهُ المجتمع ليساهم في صنع القرار أو يُوجِدَهُ المستعمِر ليساهم في تيسير الصعاب والعقبات الاجتماعية التي يمكن أن يواجهها هذا الأخير وهو يحقق مآربه الاستعمارية. وعليه وما دمنا نعالج إشكالية تأويل العلاقات الاجتماعية والسياسية بين الزعيم والفلسطينيين ورجال الاستعمار، فإن غايتنا التأويلية هي كشف تجليات زيف زعامة سليم بك الهاشمي وخيانته. وفي تأويلنا نجد في الانفتاح على نظرية المصلحة ونظرية الجهد (غيرتز، ٢٠٠٩، ص ص. ٤١٥-٤١٦) نفعا كبيرا حيث تفتحان أفقا معرفيا وتأويليا واسعا، فلكي نكتشف الخيانة والزيف يمكن أن نبحث في المصلحة التي يسعى سليم بك الهاشمي إلى تحقيقها، ثم التأكد من توافق هذه المصلحة مع مصلحة الشعب الفلسطيني أو اختلافها.

٢- نموذجَا الفوضى في التجربة الاجتماعية للعملاء

- النموذج الأول

يتطلب الوجود في جماعة، كيفما كانت، مقاومة الفوضى وتحقيق النظام، وهذا ما ذهب إليه كل رواد السميائيات الثقافية، فتأويلنا لهذه الرواية في هذا المحور سيقف عند الجهد الذي يمارسه العملاء لمقاومة الفوضى الناتجة عن مقاومة الفلسطينيين للاستعمار. ففعل المقاومة يشكل، من حيث هو حدث، ذاكرة محظورة يمنع تذكرها، ولهذا فالرواية وهي تحيي الذاكرة المنسية للعملاء تكون قد فضحت المنسي أو المزيف، باعتبار أن المنسي أو المزيف هو من أولويات وتفضيلات تأويل الذاكرة في الرواية وفقا لمعايير كونها السميائي. ولهذا فالفضح اقتضى من الرواية الدخول إلى الفضاء الداخلي للعملاء، حيث يصدر الخطاب من الذات إلى الذات، وتغيب الرقابة على الخطاب، يقول الهاشمي مخاطبا الحمدي: «ما الذي يحدث هنا أمام عينيك؟ يخرج ولد من القرى التي ائتمنتك عليها ويطلق النار على ضابط إنجليزي في وضح النهار» (الرواية، ص. ٣٠١) .

إن ما قدمته الرواية هنا يكشف أنها جعلت المجتمع الفلسطيني منقسما إلى صنفين، حيث لم يعد هناك أفراد المقاومة الفلسطينية لوحدهم فقط، بل أصبح إلى جانبهم العملاء الذين عُهِد إليهم ممارسة وظيفة اجتماعية هي الزعامة قبل أن يصبحوا عملاء لدى المستعمِر. إن التصنيف الذي مارسه الكون السميائي للذاكرة في الرواية يعتمد على «حدٍّ أخلاقي» ينتقي من ذاكرة الماضي الحدث الذي يترجم في بنيته دلالة أخلاقية تتحدد في الخيانة، لكن هذا الحد الأخير سيتعاضد مع حدود سميائية أخرى من قبيل الحد الاجتماعي والحد الزمني والحد السياسي.

والملاحظ من خلال المقطع السردي الأخير أن الرواية تُحْيِي ذاكرة العملاء في فضائهم الداخلي المتستر عنه، حيث نجد سليم بك الهاشمي يخاطب بغضب رجله الحمدي الذي عرف بحقارته وخدمته للمستعمِر، وهذا الخطاب يتضمن اشتغال كون سميائي يخص العملاء؛ إذ ينتقي الكلمات التي يتبادلها العملاء فيما بينهم، فالخيانة تستخلص من خلو هذا الكون السميائي الأخير من معجم مقاومة المستعمِر البريطاني وصده عن استعمار فلسطين. وعليه يمكن التساؤل: لماذا يخون الإنسان وطنه؟ إن هذا السؤال ينطوي على دلالة الهشاشة الأخلاقية، حيث يفضل الإنسان انبطاحه وحقارته على أن يكون مخلصا لقضايا مجتمعه. وبالتالي، فالهاشمي يميل نحو الخيانة لأجل تحقيق مصلحته، لأن الصدق يبعده عنها. وبالنسبة لإشكالية المصلحة فإنها تقودنا إلى نظرية المصلحة ونظرية الجهد عند كليفورد غيرتز، كما تقودنا إلى مقولتي النظام والفوضى عند لوتمان.
وإذا أعدنا تأمل المقطع السردي قيد التأويل سنجد أن الرواية تتذكر مثالا للفوضى (العيب) التي تطبع التجربة الاجتماعية للعملاء والمتمثل في إطلاق النار على ضابط إنجليزي دون تستر وعلى نحو من الجرأة من طرف الفلسطينيين (الرواية، ص. ٣٠١). إن الرواية تصور لنا مصلحة العملاء في انضباط الفلسطينيين للوضع الجديد وتقبله دون مقاومته، فغياب هذه المصلحة جعل العملاء غير راضين أو مرتاحين لهذا الوضع، الأمر الذي يدفعهم لتغيير هذا الوضع.
وعليه، فحدث غضب الهاشمي على عدم ضبط الفلسطينيين وشل حركتهم يشكل صورة مصغرة عن الأنظمة السياسية العربية القائمة، فهي «المتسببة في هذا الجوع والدمار النفسي فإنها ليس فقط لا تفكر بالتغيير وإنما تجيش كل إمكانياتها من أجل منعه وسد الطريق في وجهه» (منيف، ٢٠٠٧، ص ص. ١٤٧-١٤٨). فالحركة الأولى التي قام بها الزعيم سليم بك الهاشمي هي لوم رجله عبد اللطيف الحمدي على ما وقع. وإذا فكرنا من منظور نظرية المصلحة ونظرية الجهد عند كليفورد غيرتز، سنفهم أن الرواية تستعيد الأحداث مع ما يرافقها من انفعالات، فالحدث قيد التأويل يكشف أن مصلحة الهاشمي تتأسس على انفعالين هما:

١- انفعال الخوف؛ إن سليم بك الهاشمي يخاف من لوم المستعمِر له على فشله في ضبط المقاومة الفلسطينية وجعلها منهكة وفاقدة للإرادة. إن الخوف مرتبط بزمنين هما الماضي الذي احتوى الأحداث المسببة للخوف، ثم المستقبل الذي يمكن أن يحتوي الأحداث التي سيخلفها تمرد الفلسطينيين على المستعمر وعملائه، لذلك يكون «الخوف فكرة حول شيء من المستقبل أو من الماضي يبدو مآله (كيفية أليتية) مشكوكا فيه (كيفية إبستيمية)» (غريماس وفونتنيي، ٢٠١٠، ص. ١٥٣).

٢- انفعال الرغبة؛ حيث تتولد الرغبة، لدى الهاشمي، في لوم ومحاسبة عبد اللطيف الحمدي. وعن العلاقة بالانفعالين الأخيرين، نجد أن الرواية تُفعّل حدًّا سميائيا نفسيا لتؤول ذاكرة الحال النفسية أو العاطفية للهاشمي أثناء الحدث المتذكر، وإذا كان كليفورد غيرتز يقول: «إن الحالات النفسية تفسَّر بمصادرها.» (كليفورد غيرتز، ٢٠٠٩، ص. ٢٣٩)، فإننا نجد الرواية قد بحثت في ذاكرة الهاشمي عن مصادر انفعاله خوفا ورغبة، وقد مثلتها في علامة نصية هي: إطلاق النار على ضابط إنجليزي في وضح النهار (الرواية، ص. ٣٠١). إن البحث في سيكولوجية السياسي من منظور السميائيات يحيلنا على ما اقترحه كريستيان تيليغا وهو أنه يمكن النظر إلى علم النفس السياسي بوصفه حقلا تأويليا (تيليغا، ٢٠١٦، ص. ٩).

ولأن الرواية تقدم لنا الحياة الاجتماعية للسياسي وما يتخللها من ممارسات فإننا نتيقن من أهمية الأدب في علم النفس السياسي، حيث إن هذه الرواية تشكلت من الشهادات الحية والمؤرشفة للناس على الذاكرة الفردية والجماعية، وهكذا نفهم ما أشار إليه كريستيان تيليغا، وهو أنه "لا يتعين أن تنبع تحليلات علم النفس السياسي من القوانين العامة والمفهومات السيكولوجية فحسب، بل يفضل أن تنبع من حيوات (كما عيشت بالفعل) ومن ممارسات اجتماعية (كما مورست بالفعل) ويجب ألا ينطلق المرء، فقط، من التساؤل حول مدى قدرتنا كباحثين على تبين الواقع، ولكن من التساؤل حول مدى قدرة الفاعلين الاجتماعيين على تبين الواقع الذي يخبُرونه كما هو، ويتعين علينا كمشتغلين بعلم النفس السياسي أن نتدبر على نحو جدي التجليات الأيديوغرافية للوجود الاجتماعي (دراسة الحقائق والعمليات بمعزل عن القوانين العامة)، والتعامل مع الناس ومع السياسات باعتبارها نواتج لنشاطات اجتماعية وممارسات اجتماعية" (تيليغا، ٢٠١٦، ص ص. ١٤-١٥).

وحسب تصور كليفورد غيرتز نفهم أن سليم بك الهاشمي خائف وقلق لكونه أدرك خطر قتل الفلسطينيين لضابط انجليزي. وهذا الخطر مرتبط بمواجهة الحكومة البريطانية للهاشمي واحتمال معاقبته. أما بالنسبة لنظرية الجهد السالفة الذكر فتساعدنا على التأكد من أن الهاشمي يعيش حالي التوتر والقلق انطلاقا من خلفية تحفيزية وسياق اجتماعي يتحددان في تثبيت أركان الاستعمار ثم تحقيق مآرب شخصية (غيرتز، ٢٠٠٩، ص ص. ٤١٥-٤١٦). إن تحقيق المصلحة أو النظام من طرف الهاشمي يستوجب عليه تحديد البنيات الاجتماعية المخالفة والمعاكسة لمصالحه، لذلك إذا عدنا للمحفل السردي السالف الذكر (الرواية، ص. ٣٠١). سنجد أن الهاشمي ينظر بعين تومئ إلى الشعور بالغضب على ما يقع في القرى.

إن الغضب لا يعني سوى فقدان الهاشمي للرضا عن ما يجري حوله وعيشه حال خيبة أمل. ولأن الغضب متعاضد مع الحزن والخيبة، فإن "الرضا هو فرح يستعاد من خلال ما يتحقق ضدا على كل أمل، وبالمثل فإن الخيبة حزن يستعاد من خلال ما يتحقق ضدا على كل أمل" (غريماس وفونتنيي، ٢٠١٠، ص. ١٥٤). فانفعال الغضب يعكس اشتغال عملية النبذ والمقاومة عبر السعي إلى تقييد حركة أفراد المقاومة في اتجاه الثورة والتمرد (الفوضى). فهذا التقييد يحفزه سياق اجتماعي وخلفية محددة في تأمين مصالحه وامتيازاته الذاتية وكذا خدمة المستعمِر.

إن الرواية، وهي تؤول شخصية الهاشمي في علاقته مع رجاله (الحمدي...)، تكون قد أحالتنا إلى تبيان نمط الوجود الذي يعيشه الزعيم الهاشمي؛ وهو الوجود والعمل في الظل. إن العمل في الظل من طرف العملاء يحيلنا على كتاب 'جيش الظل المتعاونون الفلسطينيون مع الصهيونية ١٩١٧-١٩٤٨' (كوهين، ٢٠١٥) وفي عنوان هذا الكتاب نجد أن كلمة الظل تنفتح على دلالات الاحتجاب والعتمة وعدم الوضوح، ومنه نفهم أن هذا الجيش الذي تتحدث عنه هلّيل كوهين هو جيش يشتغل في العتمة ووراء الحجب دون أن يتضح وجوده. وهذا حال سليم بك الهاشمي فهو كما يعلم أهل الهادية، إلا الفطنين منهم، مناضل كبير، لكن الرواية وهي تحيي الذاكرة تنبش في الفضاء الداخلي للسُّلطة العميلة وتخترقه باعتباره فضاء محظورا أو مهابا أو مغيبا عن الذاكرة الثقافية الفلسطينية. فهذا الفضاء النوعي يكون متسترا عنه من خلال جعل الحمدي وصبري النجار هما المتهمان الحقيقيان، فهما يكونان زيفا لهذه السُّلطة، مما يجعلها تتحرك على نحو من البراءة.

خلاصة ما سبق، هي أن الرواية صورت لنا العملاء وهم يعيشون الخوف من لوم المستعمِر على فشلهم في ضبط الفلسطينيين. لكن بعد الذي أولناه سننتقل إلى تجربة تأويلية أخرى، يتعلق الأمر بالعملاء والخوف من فقدان الشرعية من الفلسطينيين.

- النموذج الثاني

يشكل هذا النموذج الثاني للفوضى في التجربة الاجتماعية للعملاء انعكاسا لتسريد الحذر، حيث يصير الحذر مطلبا لضمان تحقق المآرب وتجنب الخسائر. فممارسة الحذر يشكل ضربا من مقاومة الفوضى وتحقيق النظام (تحقق المصلحة)، ولهذا سنجد العملاء يحذرون مما يحيط بهم ويتوقعون ما يمكن وقوعه في المستقبل. فالعملاء وهم يؤولون تجربتهم الاجتماعية يضطرون للوجود مع الآخر (أفراد المقاومة الفلسطينية) والذي يختلف سميائيا في الفضاء السميائي. فهذا الآخر يشكل بالنسبة للعملاء مصدرا للخطر والأمن في آن واحد.

وبما يخص تأويلنا نجد أن الرواية تؤول العملاء وهم يدركون طبيعة الفوضى التي تهددهم، يقول السادر : "فعشرات الزعامات في المدن أحست بالزلزال، وأدركت أنها إن لم تتحرك بسرعة فستفقد شرعية وجودها، ولذلك كان لا بد لها أن تجد الحل" (الرواية، ص. ٣٠١)، ويتبين من هذا المقطع السردي أن الرواية تُحْيي ذاكرة العملاء وهم يؤولون تجربتهم الاجتماعية والاستعمارية، وقد كان هدف هذا التأويل من جهة أولى هو معرفة الفوضى، ثم من جهة ثانية تحقيق النظام (البحث عن الطمأنة) (إزاك، ص. ١٦٢) ومقاومة الفوضى (خطر فقد الشرعية). إذن، فالعيب أو الخلل هو خطر فقدان الشرعية، كما أن الحركة، التي يمكن

للزعامات أن تقوم بها، لن تنفصل عن الأيديولوجيا التي تخدم غاية درء خطر فقد الشرعية. إننا نكون هنا أمام ما أسماه كليفورد غيرتز بنظرية الجهد، حيث ينظر إلى التصريحات الأيديولوجية على خلفية الجهد المزمن لإصلاح الخلل في الميزان الاجتماعي – النفسي – أو السوسيو – سايكولوجي، فحسب خلفية الجهد يفر الناس من القلق (غيرتز، ٢٠٠٩، ص ص. ٤١٢–٤١٣). فما سيفعله الهاشمي مثلا يشكل أثرا لوجود جهد مبذول قصد التغلب على حال نفسية أو انفعالية سلبية. ومن هنا فالعملاء سيطرحون سؤالا مفاده: ما العمل؟ فالإجابة عن هذا السؤال ستكون تجليا لاشتغال تنظيم مسار تحقيق النظام أو المصلحة. وإذا بحثنا في ذاكرة الهاشمي سنجد أنه سيسعى إلى ممارسة التمظهر بالبراءة والنية الحسنة بالإضافة إلى التضليل والمروغة. فمظهر البراءة نجده في الحوار الذي دار بين الهاشمي وأهل الهادية:

-بما أخدمكم؟ قال الهاشمي
-العفو. قال إليا راضي. لا بد أنك سمعت بحكاية الهادية مع الدير.
-ومن لا يسمع به؟!
-لكن أحدا لم يتحرك. قال الختيار أبو سنبل. ولذلك كان لا بد من أن نأتي إليك.
-أنتم تعرفون، في مسائل وطنية كهذه أنا رهن إشارتكم (الرواية، ص. ٤٠).

يشكل تأويل الذاكرة الذي قامت به هذه الرواية ميزة ثمينة لكونه أتاح لهذه الأخيرة، وهي تتذكر الزعيم، اختراق كينونته ظاهريا وباطنيا، وهو اختراق كشف حقيقة الزعيم، حيث أبان عن موطن كلٍّ من شخص الزعيم وقناعه، فهذا القناع حسب وولف غانغ إيزر يمكّن الزعيم من تجاوز المحظور (إيزر، ١٩٩٨، ص. ٨٩) والذي يتمثل في التشويش على محاولة جس نبض الزعيم تجاه القضايا الوطنية من طرف أهل الهادية. إن التمظهر بالبراءة (ارتداء الذئب فرو الخروف) هو أسلوب قديم، لكن هناك أسلوب حديث يرتبط بمستجدات العصر، والمتمثل في التضليل والمراوغة. ويتجسد هذا الأسلوب في حدثين:

الحدث الأول: الدخول عنوة إلى الحبس، يقول سليم بك لحاكم اللواء: «تعرف أن أمثالنا بحاجة دائما لثقة الناس. وأظن أن نيلنا ثقتهم يفرح سعادتكم.
-وكيف لي أن أقوم بما عليك أنت القيام به مستر الهاشمي؟!
-احبسونا أكم من يوم؟!
-أريد أن تصدر أمرا بحبسي، أسبوع أسبوعين، وكما نقول نحن (أنت وكرمك!!)» (الرواية، ص. ٤٤٢).

حينما تتعدد مراجع الذاكرة ويصير تأويلها احتماليا لا أحاديا يكون الواقع المتذكَّر منكشفا حتى عمقه وتفاصيله، ولذلك استطاعت الرواية أن تخترق الفضاء الداخلي للعميل الهاشمي وتكشف مساوئه وخبث الأفعال التي تطرأ داخله، مما يؤكد ما قاله تزفيتان تودوروف: «إن الإنسان يهتم بالآخرين ظاهرا فقط مع المطالب الملحة للأخلاق الرسمية. وفي الواقع، فإنه كائن أناني محض ونفعي، وإن البشر الآخرين، بالنسبة إليه، ليسوا سوى منافسين أو عقبات» (تزفيتان، ٢٠٠٨، ص. ٢٤٤). ومن خلال هذه المعرفة التي تقدمها الرواية يمكن أن تحقق الرواية حاجة اجتماعية جديدة؛ وهي تحفيز الشك في ما نعتقد أننا نملك معرفة يقينية عنه، وبالتالي السعي إلى معاودة معرفته. وهذا ما يعكس ضرورة السميائيات «لاختراق ما يبدو أننا نعرفه ونمتلكه بالفعل» (Sedda, 2012, p. 676).

وخلال المقطع السردي قيد التأويل نكتشف سعي الهاشمي نحو حفظ سلطته من أي خطر محدق. فالهاشمي حينما يسجن يكون قد أكسب زعامته سمات وصفات مشتركة مع أفراد المقاومة الفلسطينية والتي تنفتح على القمع والتهميش من طرف المستعمِر، وبالتالي يكون التضليل قد مورس بنجاح. فالحبس الذي يرغب فيه الهاشمي سيجعل الناس يرون في الهاشمي زعيما مقلقا للسُّلطة الاستعمارية، وبالتالي تكتسب سلطته صلاحية ممتدة.

الحدث الثاني: تسخير التضليل الإعلامي حيث تُجْبَرُ الصحافة على الكتابة عن حدث دخول الهاشمي للحبس، مع التأكيد على مشاركة الصحفي محمود بن الحاج خالد في الكتابة، وذلك يدل على الرغبة في صيانة العار الذاتي بشرف الآخرين (الرواية، ص. ٥٨٩). فحينما يؤكد سليم بك الهاشمي ضرورة مشاركة الصحفي محمود فإننا نتأكد مرة أخرى من أن العملاء والمستعمرين لا يتحركون بمنأى عن أفراد المقاومة، فهم في حاجة دائمة إليهم. ويمكن تأويل هذا الحدث عبر ربطه مع دور الصحافة في بناء الذاكرة، وذلك لأجل معرفة أن الرواية تسعى إلى نقد الدور السلبي الذي تلعبه الصحافة والمتمثل في تشويه الذاكرة وتزييفها، فعوضا عن أن تكون الصحافة آلية للممانعة ضد التذكر السلبي فقد فضل أصحابها أن يسخروها لتثبيت أركان النسيان (نسيان حقيقة الزعيم سليم بك الهاشمي).

٣- الوجه الآخر للعملاء: سليم بك الهاشمي وانفعال الحقارة

إذا بحثنا في ذاكرة شخصية سليم بك الهاشمي من حيث علاقات هذه الشخصية مع أطراف مختلفة، مثل بيترسون وعبد اللطيف الحمدي...، سنكتشف حقائق جديدة ومفاجِئة يمكنها أن تفتح باب السخرية من زعيم يتسلّط على الفلسطينيين من وراء حجب في سبيل إرضاء العدو والحفاظ على مصالحه. إن الحقارة التي يتصف بها الزعيم سليم بك الهاشمي تَبِينُ عن غطرسته وقوته وجبروته، والتي استنتجناها من خلال تأويلنا لمسار الأحداث التي عاشتها هذه الشخصية، لكننا لم نكن نظن أن هذه الشخصية ضعيفة من حيث قوتها ناهيك عن تسلطها على الفلسطينيين.

إن هذا الضعف يظهر من خلال كشف الرواية للواقع الذي لا يرغب الهاشمي في إظهاره، وذلك يتضح في الحكاية التي أسمتها الرواية ب 'البصقة': فبيترسون هو من بصق، فجرت الريح البصقة وسقطت على حذاء سليم بك الهاشمي. فهذا الأخير كان «على وشك أن يفتح فمه، حتى تلقى تلك الضربة المفاجئة من هراوة بيترسون، ضربة صاعقة كان يمكن أن تطيح برأسه لولا أنه مال في اللحظة الأخيرة فتلقاها بذراعه، دارت به الدنيا وهوى» (الرواية، ص. ٣٧٧). إن الرواية وهي تحيي ذاكرة هذا الحدث تكون قد كشفت لنا الاختبار الذي عاشه سليم بك الهاشمي، وهو اختبار يظهر طبيعة القوة التي يملكها الهاشمي، فهي كما افترضنا ضعيفة لأنها لا تستخدم كلما احتاجها صاحبها، بل تستخدم لمواجهة الضعفاء ومن هم خاضعون لها باسم القانون الاجتماعي.

ولمعالجة الحقارة التي يتميز بها هذا الزعيم، بما هي انفعال يجتاح هذه الشخصية ويؤثر في أفعالها، يمكن أن نسوق ما قاله رينه ديكارت: «إن الذين لهم نفس ضعيفة ودنيئة لا يتصرفون إلا سعيا وراء الثروة والنجاح يملؤهم زهوا وكبرياء، كما أن الفشل يجعلهم متواضعين. بل إننا غالبا ما نرى أنهم يذلون أنفسهم بطريقة مخجلة أمام أولئك الذين ينتظرون منهم مكسبا أو يخشون منهم شرا، وفي الوقت عينه فإنهم يتعالون بلا حياء على أولئك الذين لا يأملون منهم شيئا ولا يخشون منهم أي مكروه» (ديكارت، ١٩٩٢, ص. ١٩٥) ولقد رأينا كيف أُذِلّ سليم بك الهاشمي من طرف بيترسون، وكيف يمارس غطرسته بتحريض صغار العملاء على إفشال مقاومة المستعمر.

وعليه، نخلص إلى أن سليم بك الهاشمي إنسان يمكن النظر إليه بوصفه موضوعا للدراسة اعتبارا لتحول الفكرة التي تسكنه وللتناقضات التي تخترق كيانه في الفضاء الاستعماري الفلسطيني. فدراسة هذه الشخصية هاجس ينبع من إشكالية التقلب التي تعيشها، فالجهل بمغزى هذا التقلب أو الشيزوفرينية يبرر دراسة هذه الشخصية. وهنا نلتقي مع الفكرة التي يعبر عنها أحمد الطريبق بالقول: «إن الإنسان لم يعد تلك الهوية المغلقة والمبهمة والمسدودة، إنه أصبح موضوعا قابلا للانكشاف والاكتشاف والتصنيف والتحديد» (الطريبق، ٢٠١٥، ص. ١٧٠).

نخلص في نهاية هذا التأويل إلى أن النظام (المصلحة) الذي يسعى الهاشمي لتحقيقه مخالف لنظام ومصلحة أفراد المقاومة الفلسطينية. وإذا حاولنا، ونحن نؤول الرواية، أن نبحث في مصلحة الفلسطينيين سنجد أن الرواية سعت لفضح زعامة سليم بك الهاشمي، وذلك من خلال تبيان مصلحة الشعب الفلسطيني، ذلك الشعب / البنية الاجتماعية المقموعة، والتي تعيش على إيقاع الخوف والشجاعة واليأس والأمل ومجموعة من الانفعالات أو المشاعر المتقلبة. فهذه المشاعر والانفعالات يثيرها ويحفزها اشتغال المصلحة (النظام)؛ تلك المصلحة التي تتحدد في إيقاف انتشار الفوضى التي يقوم بها المستعمِر والدِّير على مستوى الفضاء الفلسطيني. يقول إليا: «ليس لنا سوى أن نذهب إلى سليم بك الهاشمي، هو وحده الذي يستطيع أن يساعدنا، والجميع يعرف أنه مناضل كبير ...» (الرواية، ص. ٣٩٧).

٤-أفراد المقاومة بين مقاومة الفوضى وتحقيق النظام

يقتضي تحرر الفلسطينيين من الفوضى وتحقيق النظام مواجهة تجربتهم الاجتماعية، وهي مواجهة تقوم على جعل هذه التجربة موضوعا سميائيا، وذلك من خلال التوسل بالثقافة. ويحيلنا التفكير في إشكالية نقد الفلسطينيين لتجربتهم الاجتماعية ومعرفة الخطر على تحسيس الرواية قارئها بأهمية الثقافة في بناء الإنسان وتقييم حاضره، فالثقافة ستساعد الإنسان الفلسطيني على تأويل تجربته الاجتماعية ومعرفة ما يجب فعله. وبعودتنا إلى الرواية سنجدها تعرض التجربة الاجتماعية على لسان إليا، وتدمج معها نقدا اجتماعيا لها على لسان الأنيسة باعتماد الحوار:

-يخاطب «إليا» رفاقه وهم يفكرون في حل مشكلة سرقة الدير لأراضي أهل الهادية: «ليس لنا سوى أن نذهب إلى سليم بك الهاشمي، هو وحده الذي يستطيع أن يساعدنا، والجميع يعرف أنه مناضل كبير ...» (الرواية، ص. ٣٩٧).

-تقول الأنيسة لإليا: «كأنك لم تقاتل مع الحاج خالد يا إيليا، لسه طيب وعلى نياتك، ما الذي تقوله عن هذا وأمثاله، يدافعون عن الأوطان؟ كل الذين دافعوا عن الوطن ماتوا إما على المشانق أو برصاص اليهود والإنجليز، أما هؤلاء الزعماء فلا يموتون، سبحان الله إلا موتة ربّهم!! ما لكم يا رجال، ما الذي حصل لكم هل عميتم؟» (الرواية، ص. ٣٩٧).

نلاحظ أن تدخُّل الأنيسة يتميز بالمفاجأة (الاستغراب أو الاندهاش) والانفعال (دخول الأنيسة في هوى اليأس).

فالمفاجأة ارتبطت بتدخل الأنيسة في موضوع النقاش وهو التدخل الذي لم يكن منتظرا. بينما ارتبطت حال الانفعال بحال اليأس التي تعيشها شخصية الأنيسة، فاليأس يعني فقدان الأمل في شيء ما أو شخص ما... فقد كان الأمل حينما كانت الذات مُقبلة وشغوفة ومنتظِرة، لكن التغير الذي يصيب الوعي في التجربة الاجتماعية والعلاقات مع الآخرين قد حول الشعور بالأمل إلى شعور باليأس.

فالرواية وهي تبني ذاكرة هذا الحدث سميائيا تحاول أن تضع الشخصيات في حوارية تنكشف خلالها الأوعاء على نحو اختلافي. وعودا لمفهوم الثقافة (الثقافة بوصفها ذاكرة للجماعة)، (لوتمان وأوزبنسكي، ١٩٨٦، ص. ٢٩٨),يمكن القول إن الأنيسة اعتمدت على الثقافة لتروم نقد التجربة الاجتماعية المتعلقة بالخطاب الذي قاله «إليا»، فالأنيسة ما كان بإمكانها أن تنقد الصورة التي كوّنها «إليا» وغيره عن الزعيم سليم بك الهاشمي لو لم تعتمد على الذاكرة الثقافية أو ما اختبرته هي خلال اليومي الاجتماعي صحبة جماعتها البشرية، كما أنها ارتكنت إلى الثقافة لتضع معايير معرفة من يدافع عن الوطن ومن يخونه.

يتوزع تأويلنا لهذا المقطع السردي وفقا لسردية الخيانة إلى عدة معاني مختلفة وفقا لاختلاف سياق التأويل:

١- يمكن القول بخصوص المعنى الأول إن الرواية تؤكد على هوية الذاكرة التي تروم إحياءها، وهي الذاكرة المضادة، وذلك من خلال تسريد خطاب ذاكراتي مضاد يتضمن مادة فكرية مستقاة من رحم التجربة السياسية والاجتماعية المشتركة (الثقافة وفق مفهومها العام)، وذلك لأجل مواجهة الكذب السياسي الذي لا يحق أن يمارس في زمن الكوارث الاجتماعية. يقول إدوارد سعيد: «عندما يتعلق الأمر بالهوية السياسية، عندما تكون عرضة للتهديد، فإن الثقافة تُمثل أداة للمقاومة في مواجهة محاولات الطمس والإزالة والإقصاء. إن المقاومة شكل من أشكال الذاكرة في مقابل النسيان.» (إدوارد، ٢٠٠٧، ص. ١٤٣) فمن إمكانات الثقافة هناك التأويل الذي يشتغل أداة للتغيير والتحديث، وفي الوقت نفسه وسيلة للممانعة والمقاومة (إدريس جبري، ٢٠١٥، ص. ١٠). فهذا التأويل تجلى في ما قامت به الأنيسة في حق الزعماء، وبهذا فالتأويل يفتح لنا أفقا معرفياً حيث يقترح علينا بأن هناك بدائل معرفية وغايات أخرى للتأويل، وهذا ما يجعله أفقا سميائيا ضروريا من خلال كفايته في الكفر بقداسة السُّلطة ورهبتها.

إن بناء الذاكرة المضادة على لسان الأنيسة مرتبط بذاكرة السُّلطة التي تؤولها الرواية على أنها ذاكرة مزيفة أذاعها العملاء في الماضي، ولا زالوا يفعلون ذلك في الحاضر؛ ولهذا فقد وجب نقدها. إنها ذاكرة يتم تسريدها على لسان سليم بك الهاشمي وهو يُبِينُ عن نيته الحسنة في خدمة القضايا الوطنية. ومن يبحث في ذاكرة السُّلطة سيكتشف أن رواياتها تشتمل على خصائص رواية التاريخ الرسمي، فهذه الأخيرة «تشتغل وفق سياسات الإقصاء، حيث تنتقي من التاريخ ما يسوّغ مشروعيتها، وتقصي الأصوات المقموعة والمهمشة» (بوعزة، ٢٠١٠، ص. ٨٣).

والملاحظ أن الرواية تمثل وتعرض سليم بك الهاشمي وقد صاغ خطابه وفق مسار تأويلي من شأنه أن يحقق حاجة اجتماعية لذاته من قبيل إبعاد الشكوك الموجّهة إليه بخصوص تعاونه مع المستعمِر. وهذا ما يعكس حقيقة مسارات التأويل وهو أنها «تولّد بواسطة المصالح الشخصية، لكن تنظيمها يتم بواسطة التسلسل الهرمي الاجتماعي» (Lorusso, 2015, p. 126). وبهذا فالرواية، وهي تترجم خطاب العملاء إلى بنيتها بجانب خطاب أفراد المقاومة على نحو من اللاتجانس واللاتماثل وثنائية (نَحْنُ وهُمْ)، تعرض عيوب تجربة الماضي الاجتماعية، الشيء الذي يؤكد قدرتها على التحليل، يحضرنا في هذا السياق أحد أبعاد الخطاب الثقافي، «يتعلق الأمر بالقدرة على التحليل، بمعنى أن تتخطى القوالب الجاهزة وتضطلع بمهمة تصحيح الأكاذيب التي لا تني تصدر عن السلطة. أن تقوم بمساءلة السلطة وبالبحث عن بدائل؛ وهذه الأشياء تمثّل أيضا جزءاً من أسلحة المقاومة الثقافية» (إدوارد، ٢٠٠٧، ص. ١٤٣).

٢- وبالنسبة للمعنى الثاني، نقول إن المقطع السردي يومئ إلى اشتغال إحدى وظائف الأيديولوجية في خطاب شخصية الأنيسة، والتي تتحدد حسب كليفورد غيرتز في «تعريف الأصناف الاجتماعية» (غيرتز، ٢٠٠٩، ص. ٤١٥). ونتيجة تأويل بنيتين اجتماعيتين، وفق سياق مرتبط بالصراع حول المصالح (أيديولوجية المقاومة وأيديولوجية الاستعمار)، تتحقق في هذه الرواية حاجة اجتماعية تتمثل في تمكين المجتمع الفلسطيني من التمييز بين العميل الخائن والمقاوم المخْلص لقضية شعبه. إن هذه المسألة الأخيرة التي تعود لغيرتز ترتبط بمسألة ""الأنا" و "هو" والذات... يجب أن تضع الكل في سلة واحدة. يجب أن نميز البريء من المذنب والظالم من المظلوم وأن نحفظ الحدود بوضوح حيث تبدو الأشياء مكشوفة وعارية وبشكلها الحقيقي دون أن تدلق العطور على الجثث المحنطة أو على الماضي الذي يحاول البعض أن يشدنا إليه تحت عنوان المعاصرة ووهم الإنقاذ» (منيف، ٢٠٠٧، ص. ١٤٨).

٣- يتحدد المعنى الثالث في أن تأويل الأنيسة للتجربة الاجتماعية نتج عنه نقد مزدوج الوجهة: فالوجهة الأولى تتجلى في نقد الصورة التي يحتفظ بها أفراد المقاومة عن سليم بك الهاشمي، والتي تتركب بين التمثلات والصورة التي يصنعها الهاشمي لنفسه. إن هذا النوع من النقد يجعل الذات «تعيد تأمل الماضي وتقييم تجربتها ومراجعة مفاهيمها وفق دينامية الذات في مسار موسوم بالشك والتشظي» (بوعزة، ٢٠١٠، ص. ٨٠). بينما تتجلى الوجهة الثانية في نقد الذاكرة وما أصابها من نسيان لحقيقة الهاشمي أو غفران لما فعله في الماضي (ما نسميه النية الحسنة).

٤- يرتبط المعنى الرابع بتأويل النسيان الذي اجتاح ذاكرة "إليا" ورفاقه، فهذا النسيان ينقسم في نظرنا إلى صنفين:

النسيان الطبيعي: يمكن القول إن "إليا" يعيش، هو وغيره من أفراد المقاومة، أحوالا انفعالية متنوعة من قبيل الخوف واليأس والشجاعة والأمل والغضب والاضطراب النفسي... الأمر الذي يجعل عقول هؤلاء الأفراد بعيدة عن الحكمة والحذر والنباهة وعن كل ما يمكّنهم من فهم تجربتهم الاجتماعية والسياسية في علاقتهم بالمستعمر وعملائه.

يحيلنا عدول العقل البشري عن النباهة والحذر على فكرة الإعاقة العقلية والتي يمكن أن نؤولها إلى أنها إعاقة ناتجة عن مخلفات الصدمة التي عاشها ويعيشها الشعب الفلسطيني الذي وقع ضحية استعمار مختلف الأشكال والطقوس. بمعنى أن الصدمة يمكن أن تعيق عمل العقل، ويصير الإنسان حينها كائنا عاطفيا ينسى ماضيه ويجهل حاضره ومستقبله. ومنه فالإعاقة العقلية أنتجت لنا النسيان الطبيعي وذلك نتيجة الآثار الجسدية التي خلفتها الصدمة، نقصد هنا الانهيار الجسدي.

تؤكد الرواية، وهي تضع الأنيسة في حوار تفاعلي نقدي مع أفراد المقاومة الفلسطينية، على أهمية الحوار المنتج للمعرفة، فهو "أداة لاكتشاف الصور المشوهة والمنمطة القابعة في الذاكرة" (التمارة، ٢٠١٠، ص. ٢١٢). ولهذا فإن "المناقشة مع أفراد آخرين يمكن أن تفيد، هناك جانب مهم في التعامل مع الشدة وهو أن نكون قادرين على التكلم عنها، وعلى طلب المساعدة، إذا لزم الأمر، من أقربائنا وأصدقائنا. إن التكلم عن مخاوفنا مع أحد نثق فيه يمكن أن يكون ذا قيمة بالنسبة لبعض مشكلاتنا. وإن مجرد التحدث عن مشكلاتنا بهدوء مع أحد يمكن أن يستمع إلينا يمكن أن يساعدنا على إلقاء ضوء جديد عليها" (إزاك، ص. ٢٦٨).

النسيان المفروض: لقد كشفت الرواية على لسان "الأنيسة" أن "إليا" قد نسي حقيقة الزعماء، وهي أنهم لا يرجون للوطن سلاما. ومنه فإذا كان ما قالته الأنيسة صحيحا بخصوص نسيان الذاكرة فإن هناك سؤالا مفاده: هل يمكن أن يكون "إليا" ورفاقه قد وقعوا ضحية النسيان المفروض حيث يتحسسون رقابة العملاء على خطابهم اليومي؟ فإذا كانت الإجابة عن هذا السؤال هي الإثبات والتأكيد فسنفهم أن الرواية تسعى إلى تسريد المعاناة من النسيان المفروض، والذي يمارس على الفلسطينيين وهم يرومون إحياء ذاكرتهم المشتركة مع المستعمِر وعملائه. هكذا فالنسيان المفروض يرجع إلى ما يروجه الزعماء عن أنفسهم؛ إذ إن "القصص التأسيسية، وقصص المجد والإذلال تغذي خطاب التملق والخوف" (ريكور، ٢٠٠٩، ص. ١٤٣).

وبالتأمل في خطاب شخصية "إليا" سنفهم أنه قد أوّل شخصية سليم بك الهاشمي إلى مناضل كبير، بينما أوّلت الأنيسةُ جميعَ الزعماء إلى خونة وعملاء، الأمر الذي يعكس تصارع التأويلات في المجتمع واختلافها نتيجة المصالح والظروف، ومنه، فالنسيان الذي اجتاح ذاكرة "إليا" وفقا لسياق تأويلنا هو تغافل وتناسٍ، فهو يشتغل بتفعيل المراقبة الإجتماعية (قانون العملاء) التي تمارس القمع من خلال جعل الذات تنتقي ما يخدم مصلحتها الفردية لا الجماعية، ومن خلال هذا الإنتقاء، وداخل الفضاء السميائي، "يغدو الدليل أو العلامة (Signe) مكانَ تناحر قوى ومحل اختلاف. الدليل هو الفضاء التفاضلي (Différentiel) الذي يكثف سلسلة لا متناهية من التأويلات. من هنا يغدو التأويل، ليس بحثا عن معنى أول، وإنما إعطاء أولويات وأسبقيات، وهي أولويات ترجع لإرادات القوى والسلطات التي توجد من وراء التأويل" (بنعبد العالي، ٢٠١٨، ص. ١٤).

وإذا كان "إليا" قد وقع ضحية النسيان المفروض فقد قام بتأويل الزعيم سليم بك الهاشمي خلافا لتأويل الأنيسة للزعماء جميعا، وذلك معزو لاختلاف الأولويات والدوافع، فوراء كل تأويل توجد سلطة تختار حدود التأويل (الحدود بمفهوم لوتمان). بمعنى أن هناك سلطة خارجية (المستعمِر والعملاء) تسكن نفوس الفلسطينيين وتقنن التذكر وتحيل الحقائق إلى الصمت والمحو (الامتداد نحو الداخل) لكي يتم التعويض بحقائق إيهامية ومتخيلة؛ حيث يصير هناك زعماء ومناضلون متخيلون.

وعليه فإن تسريد الرواية للنسيان المفروض يكون بغية تحقيق حاجة اجتماعية وهي التشكيك في الروايات الرسمية وتحفيز المواطنين الفلسطينيين على نقد الذاكرة الرسمية وعدم قبولها على أنها مسلمة ولا شك فيها. ذلك أن "التاريخ من منظور الخطبة الرسمية هو سلسلة من الانتصارات والأمجاد، تسرد وفق نموذج عضوي ارتقائي يتعالى على التاريخ والواقع (...). يواجه النص الروائي منولوجية الرواية الرسمية بتضمين الأصوات الأخرى. أصوات الذوات المقموعة (مذكرات ويوميات المعتقلين). ينبثق هذا الصوت المضاد في مجرى السرد مشككا ومفككا للتشكيل الكلي للتاريخ في رواية السلطة" (بوعزة، ٢٠١٤، ص. ١٠٠).

٥- يتعلق المعنى الخامس بتأويلنا للنقد الذي وجّهته الأنيسة إلى الصورة التي يحتفظ بها أفراد المقاومة الفلسطينية عن الزعيم سليم بك الهاشمي، ومنه، فالأنيسة تسعى إلى جعل صورة هذا الزعيم بعيدة عن اليقينية التي كانت تسكن عقول أفراد المقاومة، وبالتالي يتسنى للرواية، وهي تتذكر، أن تجعل هذه الصورة تتضح جيدا. وقد لاحظنا في علاقتنا ببناء الذاكرة سميائيا أن الرواية فعّلت آلية الحد، فانتقت حدثين يتضمنان فكرتين متناقضتين، فتكون الثانية نقدا للأولى. ومن هنا تكشف الرواية، من جهة أولى، أهمية إحياء ذاكرة الماضي في تصحيح تمثلاتنا عن بعض الشخصيات التاريخية أو عن ما يسمى بالزعماء التاريخيين، ومن جهة ثانية، تبرر عثرة المقاومة الفلسطينية وفشلها من خلال إعزاء الفشل إلى وجود العملاء.

خاتمة

إجمالا، فقد شكل تسريد الخيانة في رواية "زمن الخيول البيضاء" مسارا سميائيا ارتبط باختيارات بناء الذاكرة سميائيا، حيث اتجه التأويل صوب نقد التجربة الاجتماعية وتبيان عيوبها التي تسببت في فشل مقاومة الفلسطينيين للوجود السلبي للعثمانيين والأديرة والبريطانيين واليهود. إن ما قامت به الرواية من تسريد للخيانة أضاء ذاكرة الفلسطينيين التي احتفظت بأحداث الماضي التي ساهمت في تطورها طبقات اجتماعية مختلفة، ذلك أن تأويلنا لهذه الأحداث وقف على العلاقات الاجتماعية والسياسية والنفسية التي تربط بين المثقف والزعيم من جهة والشعب الفلسطيني من جهة أخرى.

وقد تأكدنا من أن تسريد الرواية للخيانة يعكس هوسها بالسعي إلى بناء الإنسان وتخليصه من نزعة الشر، حتى يكون مؤهلا لتجاوز الأخطار المهددة له. فالحاجة إلى الإنسان تعد هوسا يحرك بناء الذاكرة سميائيا حتى تنتج معرفة بالماضي وأخطائه، ففقدان الشعب الفلسطيني للإنسان الحقيقي قد أفشل محاولته في الانتصار على التخلف والهزيمة اللذين ألحقهما العدو به، الأمر الذي يجعل الرواية تختار عنصرين مهمين وهما المثقف والزعيم، فافتقار هذين العنصرين لمؤشر الإنسان سيؤثر في المسار التاريخي للمجتمع الفلسطيني. لذلك سعت الرواية إلى فهم تجربة المجتمع الفلسطيني في علاقتها بكلٍّ من المثقف والزعيم.

وبعد تأويلنا للأحداث المشكلة لسردية الخيانة استنتجنا أن المثقف الذي تمثل في شخصية محمود وكذا الزعيم المتمثل في شخصية سليم بك الهاشمي يشكلان نموذجين للإنسان الفوضوي الذي لم يعرف بعد واجبه أو أنه يتجاهل هذا الواجب لأسباب واهية أو لأسباب ترتبط بالرغبة في الحفاظ على المصالح والامتيازات الاقتصادية. فالواجب الذي يمكن أن يتمسك به الإنسان الفلسطيني حسب، سياق بحثنا، هو تحمل الإنسان مسؤوليته التاريخية.

التوصيات

ومن بين التوصيات التي يمكن أن نؤكد عليها هي أن الاهتمام بالذاكرة لا يجب أن يتوقف ممارسة وتنظيرا، فالأمة التي لا ذاكرة لها لا يمكن أن تؤمن حاجات الحاضر والمستقبل، فمن يظن أن الماضي انتهى فهو طائش اللب، إذ إن قيام المشاريع المستقبلية ينهض على إعادة تمثيل الماضي وطرح أسئلة الحاضر والمستقبل حول الذي وقع في الماضي. ثم هناك إشارة أخرى تهم ربط الإنتاجات الأدبية والنقدية بالممارسة السياسية للشعب الفلسطيني وهو يعاني من تأزم الوضع الاجتماعي والسياسي والثقافي، سعيا إلى الاستفادة من الأفكار التنويرية للأدب والنقد وتجنب أخطاء الماضي.

المصادر والمراجع

المراجع العربية

- أمبرطو، إيكو. (٢٠١٢). *أن نقول الشيء نفسه تقريباً* (ترجمة أحمد الصمعي، الطبعة الأولى). المنظمة العربية للترجمة.
- إيزر، فولفغانغ. (١٩٩٨). *التخييلي والخيالي: من منظور الأنثروبولوجيا الأدبية* (ترجمة حميد لحميداني، الجلالي الكدية، الطبعة الأولى). مطبعة النجاح الجديدة.
-الياسيني، زينب. (٢٠٢١). *التاريخ والرواية الجديدة: رواية "زمن الخيول" البيضاء لابراهيم نصر الله نموذجا* sarkiyat Mecmuasi (dergipark.org.tr
- بريمي، عبد الله. (٢٠١٤). فلسفة التأليف بين الأدب والتاريخ: هيرمينوسيا الزمن والمحكي عند بول ريكور. في اليامين بن تومي (تنسيق)، *فلسفة السرد: المنطلقات والمشاريع* (الطبعة الأولى). منشورات الاختلاف.
- بريمي، عبد الله. (٢٠١٨). السيميائيات الثقافية والضرورة التأويلية. في عبد الرحيم جيران ومحمد الحيرش (تنسيق)، *في الحاجة إلى التأويل* (الطبعة الأولى). منشورات مختبر التأويليات والدراسات النصية واللسانية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية – تطوان.
- بلحسن، عمار. (١٩٩١). *الأدب والأيديولوجية* (الطبعة الثانية). منشورات ج.ج. تانسيفت.
- بنعبد العالي، عبد السلام. (٢٠١٨). في المعرفة والسلطة. في عبد الرحيم جيران، ومحمد الحيرش (تنسيق)، *في الحاجة إلى التأويل* (الطبعة الأولى). منشورات مختبر التأويليات والدراسات النصية واللسانية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية – تطوان.
- بوعزة، محمد. (٢٠١٠). الكاوس الروائي: استعادة الذات وتحرير الذاكرة في "الساحة الشرفية". *في الذاكرة والإبداع: قراءات في كتابات السجن* (الطبعة الأولى). منشورات اتحاد كتاب المغرب.
- التمارة، عبد الرحمان. (٢٠١٠). سردية التفاعل الحضاري في رواية "من يبكي النوارس" لزهرة المنصوري. *مجلة آفاق*، (٧٩–٨٠).
- تودوروف، تزفيتان. (٢٠٠٨). نظرة على تاريخ الفكر (ترجمة منذر عياشي). *مجلة ثقافات*، (٢١).
- تيليغا، كريستيان. (٢٠١٦). *علم النفس السياسي: رؤى نقدية* (ترجمة أسامة الغزولي). سلسلة عالم المعرفة، (٤٣٦).

- جبار، سعيد. (٢٠٠٤). خطاب الذاكرة: حدود الواقع والتخييل. *مجلة علامات*، (٢١).
- جبري، إدريس. (٢٠١٤–٢٠١٥). سؤال التأويل في الخطاب السميائي لسعيد بنكراد. *مجلة البلاغة والنقد الأدبي*، (٢).
- ديكارت، رينه. (١٩٩٢). في الانفعالات الخاصة (ترجمة جورج زيناتي). *مجلة العرب والفكر العالمي*، (٢٧-٢٨). مركز الإنماء القومي.
- ريكور، بول. (٢٠٠٩). *الذاكرة، التاريخ، النسيان* (ترجمة جورج زيناتي، الطبعة الأولى). دار الكتاب الجديد المتحدة.
- سعيد، إدوارد. (٢٠٠٧). *الثقافة والمقاومة* (حاوره دافيد بارساميان، ترجمة علاء الدين أبو زينة، الطبعة الأولى). دار الآداب.
- سعيد، إدوارد. (٢٠١١). *خيانة المثقفين: النصوص الأخيرة* (ترجمة أسعد الحسين). منشورات نينوى.
- سعيد، إدوارد. (٢٠١٥). *المثقف والسلطة* (ترجمة محمد عناني، الطبعة الأولى). رؤية للنشر والتوزيع.
- سليمان، نبيل. (١٩٩٦). *سيرة قارئ* (الطبعة الأولى). دار الحوار.
- سويطي، بلقيس. (٢٠٢١). *رواية زمن الخيول البيضاء لإبراهيم نصر الله: دراسة سيميائية* (رسالة ماجستير غير منشورة). جامعة الخليل. https://dspace.hebron.edu/xmlui/handle/12345678/1031.
- الطريبق، أحمد. (٢٠١٥). *نقد فلسفة الحداثة عند ميشيل فوكو ٢: نقد النزعة الإنسانية*. إفريقيا الشرق.
- غرامشي، أنطونيو. (٢٠١٨). *قضايا المادية التاريخية* (ترجمة فواز طرابلسي، الطبعة الثانية). منشورات دار الطليعة.
- غريماس، ألجيرداس، وفونتنيي، جاك. (٢٠١٠). *سميائيات الأهواء: من حالات الأشياء إلى حالات النفس* (ترجمة سعيد بنكراد، الطبعة الأولى). دار الكتاب الجديد المتحدة.
- غيرتز، كليفورد. (٢٠٠٩). *تأويل الثقافات: مقالات مختارة* (ترجمة محمد بدوي، الطبعة الأولى). المنظمة العربية للترجمة.
-كوهين، هليل. (٢٠١٥). *جيش الظل: المتعاونون الفلسطينيون مع الصهيونية ١٩١٧–١٩٤٨* (ترجمة هالة العوري، الطبعة الأولى). دار بيسان.
-لوتمان، يوري. (٢٠١١). *سيمياء الكون* (ترجمة عبد المجيد نوسي، الطبعة الأولى). المركز الثقافي العربي.
-لوتمان، يوري، وأوزبنسكي، بوريس. (١٩٨٦). حول الآلية السيميوطيقية للثقافة (ترجمة عبد المنعم طليمة). في سيزا قاسم، ونصر حامد أبو زيد (إشراف)، *أنظمة العلامات في اللغة والأدب والثقافة: مدخل إلى السيميوطيقا* – مقالات مترجمة ودراسات (الطبعة الأولى). منشورات الياس العصرية.
-ماركس، إزاك. (د.ت.). *التعايش مع الخوف: فهم القلق ومكافحته* (ترجمة محمد عثمان نجاتي). دار الشروق.
-ماري، بريان. (٢٠١١). *الثقافة والمساواة: نقد مساواتي للتعددية الثقافية* (الجزء الأول) (ترجمة كمال المصري). عالم المعرفة، عدد (٣٨٢).
- منيف، عبد الرحمان. (٢٠٠٧). *الكاتب والمنفى* (الطبعة الرابعة). المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- نصر الله، إبراهيم. (٢٠١٢). *زمن الخيول البيضاء–الملهاة الفلسطينية* (الطبعة السادسة). الدار العربية للعلوم ناشرون.

المراجع الأجنبية

- Caccamo, E. (2017). La sémiosphère de la mémoire individuelle: Un modèle sémiotique et intermédial. *Cygne noir*, (5).
-Lotman, Y. (1990). *Universe of mind: A semiotic theory of culture* (A. Shukman, Trans.). Indiana University Press. Copyright © by LB, Tauris.
-Lotman, Y. (2009). *Culture and explosion* (W. Clark, Trans.; M. Grishakova, Ed.).
-Lotman, Y., & Piatigorsky, A. (1978). Text and function. (A. Shukman, Trans.). New Literary History, 9(2). *Soviet Semiotics and Criticism: An Anthology.* The Johns Hopkins University Press.
-Lorusso, A. M. (2015). *Cultural sémiotics: For a cultural perspective in semiotics. In Sémiotics and Popular Culture.* Palgrave Macmillan.
-Sedd, F. (2015). Semiotics of culture(s): Basic questions and concepts. In P. P. Trifonas (Ed.), *International Handbook of Semiotics.*